

السبت 10-11-2007

## 71.. انتصار السعادة: برتراند رسل (!)

## هذا عنوان خادع، فاحذر

سبعون يوماً (30 + 31 + 9، سبتمبر، أكتوبر، نوفمبر) وسبعون يومية: تغيّر من خلالها نمط الإلتزام اليومي، وتلاحقت الأفكار، وتعددت الاقتراحات، وتكررت التراجعات، سبعون يوماً وأنا أحاول الهرب، أو التراجع فلا أستطيع لكنني مضطر إلى هذه الوقفة معكم لأعود إلى التساؤل:

ما هذا؟ ما هذا الذي يجري؟ لماذا؟ إلى أين؟ حتى متى؟

كلما لاحت لي فرصة للتوقف للتقييم أو محاولة الرد على مثل هذه الاسئلة، اختفت وراء إلحاح السكرتارية وهي تطالبي بيومية الغد، بشكل ملاحق يستحيل صده.

ثبت أن اليومية ليست عاموداً يومياً يتابع مجريات الحياة ليسهم برأى ما أو يضئ ظلام زاوية ما،

وهي ليست عملاً متملاً يصدر في حلقات.

وهي ليست عملاً جماعياً يساهم المسئول عنه مواصلة تنظيمه بمشاركة آخرين في دفعهم إلى إنجازهم والحفاظ عليه.

حتى دائرة الذين وصلتهم بعض ملامح هذه اليومية هي دائرة محدودة محدودة، لم تتجاوز بضعة أشخاص - نفس الأشخاص - صحيح أنها تتسع ببطء؟ ولا أنكر أنني أحاول أن تتسع أكثر، ولكنني في نفس الوقت أرجو ألا تتسع أكثر،

أحاول أن تتسع لأبرر الاستمرار، وأنها البداية القادرة أن "تضري إذا ضريتُموها فتضرم".

وأرجو ألا تتسع فلست مستعداً أن أكون مسئولاً عن التماذي في اتساعها، مع الإلتزام بالتجاوب والحوار المتصل.

أكتشف من خلال كل ذلك أموراً غريبة، مفيدة وصادمة وجديدة ومرعبة معاً:

أكتشف مثلاً أنه لا شئ ينتهي،

وأن البدايات أصبحت أعجز عن أن تيرر تكاثرها،

وأني لا أستطيع أن ألاحق ما أكتشفه مخزوننا في حاسوبى (الكمبيوتر)

ولا أنا قادر أن أوجز بعض أو ما هُمّشت به - مُضارعاً - أغلب الكتب التى قرأتها ولم أجد كتاباً ما وصلنى منها، كما لا أستطيع أن ألاحق الأفكار التى تراودنى وأريد توصيلها إلى أصحابها.

ولا أن أتابع راصداً ما يغمرنى به مرضى من رؤى جديدة، تعيد تنظيم كل ما أعرف، أو تجعله يتناثر منى وأنا غير واثق متى أو كيف يعود ليستقر فى شكله الجديد.

أتوقف لدقائق - ليس أكثر - وأنا أحاول أن اختار موضوع يومية اليوم (أى يوم)، ولا تطول الدقائق فلا وقت للتردد، فأمد يدي إلى أقرب كتاب من مكتبتى التى تقع أغلبها خلف مكتبى، أحيانا أمدى يدي دون أن أنظر ورائى، وأمسك بالكتاب الذى ينجح أن يقفز إلى يدي دون أن أعنيه تحديداً: إنجليزية، عربى، نفسى، شعر، طب، فلسفة، مكتبة الأسرة، أى حاجة، أنصفح الكتاب فأجد به "آثار عدوانى" على صفحاته باخوار والشجار، والاحتجاج، وعلامات التعجب، وعلامات الاستفهام، والدوائر التى تحيط ببعض الفقرات، وأحيانا بعض الجمل، وأحيانا بعض الكلمات، فأعرف أنى زرت هذا الكتاب يوماً ما، وإلا ما لخصت به كل هذه الإصابات والكدمات، والزخارف والخلجات. حين يطلب منى أحد أبنائى أو بناتى أو زوجتى أو طلبتى أن أصور له نسخة من كتاب نادر أكون قد مدحته أو اقتطفت منه شيئاً، ويعرفون أن به ما به من أنارى هذه مما يحول بينهم وبين تلقائيتهم، يترددون فى الإحاح على النسخة، ويبحثون عن نسخة عذراء لم يمسهما بشر، خصوصاً بشر مثلى لا يرعى للبياض (ولا لسواد الحروف) حرمة بشكل حضارى مهذب،

أكتشف أن أى هامش من هذه الهوامش يصلح لموضوع يومية،

الكتب التى مازالت صفحاتها تزهو بعذريتها تُبْلِغُنى رسائل أكثر تحدياً: إذا كنت هكذا لم ألمسها فلماذا اشتريتها؟ ولماذا احتفظت بها فى مكتبتى؟ لأعود إليها؟! متى؟ وكيف أعود إليها والكتابة أصبحت تلاحقنى هكذا حتى زحفت على الهامش الذى قد كنت قد جنبتة للقراءة؟ أقلب فى هذه الكتب العذراء فأعرف لماذا اقتنيتها، وأحيانا أتذكر يوم اشتريتها أيام أن كنت أشتري كتبى بنفسى، ومؤخراً قد أتذكر متى كلفت بعض مساعدي بالبحث عنها وشرائها، طيب ماذا فعلت بها بعد اقتنائها؟ ها هى تقيع ساكنة منسية بين مئات الكتب دون أن تعبر حتى شريط ذاكرتى وأنا بعيد عنها، لا أجد فى صفحاتها - كما قلت - أى أثر من آثار عدوانى، فأذهب إلى المحتوى (أو الفهرس) فأكتشف فصولاً كنت أدفع جزءاً من عمرى لأعرف ماذا بها تفصيلاً، ويدفعنى دافعى الأول أن أرجع إلى متن أحد هذه الفصول، فأفاجأ أنها كذلك، أنها هى التى كنت أريد أن ألم بموضوعها حين افتتيت الكتاب، كنت أريد أن أحيط بوجهة

النظر التي تعرضها، والمصيبة الأكبر حين أكتشف أن بها مواضيع، أكون شخصيا وصلت فيها مؤخرا إلى فرض أو تصور أو نظرية تصورت أنها جديدة وأصيلة، وأنى بذلك أضيف إلى المعرفة أو إلى العلم إضافة جديدة غير مسبوقة، وإذا بهذا الفصل الذى عثرت عليه فى هذا الكتاب قد تناولها هى هى من قديم، بأروع وأدق مما اكتشفته أنا بينى وبين نفسى مؤخرا، أحجل من جهلى، وأحمد الله أننى لم أسارع بنشر أفكارى هذه حتى لا تبدو أنها سرقة بشكل أو بآخر، ثم أعود أفخر أننى وصلت بنفسى إلى ما سبق أن وصل إليه هؤلاء الرواد الثقة، يتكرر ذلك معى حتى اخترع ما أسميته "المصداقية بالاتفاق" "الطولى"، أو "التاريخى" Longitudinal Consensual Validity بمعنى أن إعادة اكتشاف نفس النظرية ولو بعد عشرات السنين هو فى حد ذاته نوع من إثبات مصداقيتها (وطبعاً هو إثبات لجهل اللاحق مثلئى جهود وأفكار من سبقوه)

نعم: يحدث ذلك حين يكتشف أحد العلماء نظرية ما فى مكان فى الكرة الأرضية، وفى نفس الوقت (نفس السنة، نفس الشهر، قبل ذلك بقليل بعد ذلك بقليل، قبل نشر أو انتشار احداها)، أقول وفى نفس الوقت يكتشف آخر نفس النظرية تقريبا، فيُتهم من نشرها بعد الآخر، أنه سرقتها، مع أنه قد يكون اكتشفها وسجلها لنفسه أو لخاصته، ولم تنح له فرصة النشر الأسبق. وسوف افضل ذلك فى يومية الغد "المصداقية بالاتفاق" وأكتفى هنا بالإشارة إلى نظرية الانفعال لجيمس - لانج، الأول "جيمس" أمريكى والثانى "لانج" دانيماركى، وتقوم معركة تنتهى بالاتفاق بتسميتها باسمهما معا، الفارق كان سنة واحدة 1884 - 1885، أيهما الأول؟ من يدري؟ وإلا فلماذا المعركة؟، أما نظرية داروين - والاس عن التطور وأصل الأنواع فسوف نفصل ما دار بشأنها غداً.

نرجع مرجوعنا إلى الكتب العذراء التى تقع فى يدي وأنا ابحث عن موضوع لليومية التى على أن أكتبها اليوم (أى يوم)، فأجد أننى أصبحت أشعر أن كل كتاب (تقريبا بلا استثناء) يمكن أن يكون مصدرا ليومية مفيدة، حتى الكتاب التافه، أو المزيف، أو السطحي، أو السئ، أشعر أن على أن أوضح للناس ما وصلنى "هكذا"، حتى وصفته لنفسى "هكذا".

هكذا سمحت لى هذه الورطة بمراجعة ما فعلته بنفسى وبكتي وبوقتي حتى هذه السن،

أما زيارتى لمخازن حاسوبى وأنا أبحث عن موضوع بذاته، فهى أكثر مصادمة وإرعابا، حيث أننى كثيرا ما أكتشف أننى كتبت فى هذا الموضوع كتابا كاملا، أو فصلا فى كتاب أو فهرسا كاملا لعناصر كتاب، ثم أكتشف أننى نسيت كل ذلك تماما، وأنه لولا أن الحاسوب قد سجله واحتفظ به لأقسمت أننى لم أخط فيه حرفا، ومن البديهي أن أجد فى هذه الكتب والفصول والفهارس ما يصلح لآلاف اليوميات التى ورطت نفسى فيها هكذا بالمصادفة.

هذا غير المفاجآت الغريبة وغير السارة أحيانا التى

تفاجئني وأنا أبحث في حاسوبي حين أجد عنواناً رائعاً على وجه الوثيقة أو الملف، ثم أفتحه فإذا به يحوي موضوعاً آخر تماماً ليس له أدنى علاقة بالعنوان، وقد لا أجد المحتوى الخاص بالعنوان أصلاً!! والعجيب أنه حتى هذا الموضوع الآخر الذي احتُتَبأ وراء العنوان الزائف أجده جديراً بالنظر، وإعادة النظر كما أجده صالحاً للتقديم هنا أيضاً.

#### ما هذا الذي يجري؟ ما هذا؟

أرجع أتأمل وأسأل نفسي لو أن فرويد العظيم (وليس العبد لله الأي كلام)، أو هيجل مثلاً كانت عند أي منهما فرصة لتسجيل أفكاره وآرائه بمثل هذه العشوائية، وهذه التلقائية، وهذه الكثافة إذن لتكوا لنا من الثراء والإضافة ما هو أكثر مما تركوا، ربما عشرات المرات.

#### ما هذا الذي يجري؟ ما هذا؟

الكتاب الذي وقع في يدي صباح اليوم، والذي كان سبباً في هذا الاستطرداد هو كتاب "انتصار السعادة" لبرتراند رسل، وأنا أكره كلمة السعادة هذه وأحفظ على استعمالها الطبي والتخديري والطفول والعشوائي، وقد كتبت نقداً لكتاب خصه المرحوم أ.د. أحمد مستجير في مجلة وجهات نظر، بعنوان "علم اسمه السعادة" وقد رفضت أغلب ما جاء فيه وحادت المرحوم مستجير في ذلك محذراً ترويح عقار لشركة بذاتها (ذكر د. مستجير اسم العقار في المقال بحسن نية) تحت هذا الزعم، وكأن السعادة أصبحت حبوباً تباع فتشترى،

تساءلت وأنا أقلب كتاب برتراند رسل العظيم كيف يكتب رجل بهذا الحجم والعظمة كتاباً بهذا العنوان "انتصار السعادة"؟

تصفحت الكتاب وإذا بي أكتشف أنه من الكتب التي قرأتها بعنف، حتى أن الاعتداء ظهر بألوان أقلام مختلفة، بدأت بالأسود والأزرق، ثم سالت الدماء بالأحمر العادي، والأحمر دم الغزال، لم أصدق وواصلت التقليل حتى وصلت إلى آخر صفحة فوجدت أنني فعلاً أجهزت عليه.

وسوف نعود إلى بعض ذلك مرة فمرة، ربما في باب "مقتطف وموقف".

.... هل عرفت الآن لم حذرتك من خداع عنوان هذه اليومية؟